

وثمة عامل آخر مهد لظهور السجع في القرن الهجري الرابع . . هو العامل السياسي أو القومي ، فإن الأعاجم الذين تداولوا النفوذ طول العصر العباسي كانوا يتجهون بالكتابة، منذ البداية، إلى ما كانت عليه أيام الأكاسرة؛ من إيثار اللفظ على المعنى، والميل بها إلى الزخرف والتنغيم الصوتي الذي يستميل الأذان بجرسه، ويهز النفس بموسيقاه . . يقول الأستاذ علي الجندي : (ولما كان كبار الكتاب من الفرس، وهم مغرمون بالحلية والزينة والزخرف، وفي طباعهم تقديس أكاسرتهم وأمرائهم، والخضوع المطلق لهم والفناء في أشخاصهم، بثوا في الكتابة أنواعاً من القاب التفخيم والتعظيم، ونعوت التمجيد والتهويل؛ حتى ملئت بألفاظ العبادة والتألية الغربية عن منازع العرب في العزة والكرامة والحرية والديمقراطية)^(١).

وبعد فما طابع هذه المدرسة؟ ومن أعلامها؟ وأيمهم كان الإمام الراحل؟

طابعها:

غلب السجع بأنواعه المختلفة على رسائل هذه المدرسة، وصار صناعة فنية أصيلة لتجميل العبارة وزخرفة الأساليب . تلك التي لم تخل أيضاً من ألوان البديع الأخرى كالجناس والطباق والتورية أو غيرها من ضروب البيان التي يتجلى فيها عنصر الخيال كالتشبيه والاستعارة . . ولكن هيهات أن يبلغ ذلك كله ما بلغه السجع من الذيوع والشيوع والسيطرة على هذه الأساليب التي اقتربت من أسلوب الشعر، وزاحمته في ألفاظه ومعانيه ودواعيه، حتى عمد الكتاب إلى أبيات الشعر يخلونها ويرصعون الأساليب بمشورها، كما رصعوها بآيات الله البيّنات، وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم، فضلاً عن الحكم البالغة والأمثال السائرة والإشارات التاريخية العابرة، ومن ورائها الأحداث الكبرى والقصص الطوال.

نلمح أكثر هذا كله في رسالة ابن العميد إلى أبي العلاء المعري، يشكو فيها شهر الصيام، وفيها يقول: كتابي - جعلني الله فداك - وأنا في كد وتعب

(١) فن الاسجاع ج ١ / ١١٥